من أوراق الرئيس(12)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

أصدرت قرار خروج السوفيت من مصر !

أكتوبر :**1977/1/16 م**

يصل الرئيس السادات في أوراقه إلى فترة دقيقة حاسمة في العلاقات بين جمهورية مصر العربية واتحاد الجمهوريات السوفيتية: القادة وعدوه هذه المرة بصورة قاطعة. وانتظر في مصر بصورة ملهوفة على المطالب السبعة. ولابد أن هذه المطالب تتعلق بمزيد من الأسلحة المتطورة. وكما توقع هو و بريجنيف لم تسفر زيارة نيكسون عن شيء إلا عند تأكيد الصداقة بين الدولتين العظميين وعن تعبير جديد يبعث على اليأس هو " الاسترخاء العسكري" أو التراخي العسكري...

أي مطلوب أن تسترخي مصر وجنودها على ضفة القناة وهم يرون عدوهم على الضفة الأخرى .. وأن يكون ذلك الاسترخاء إلى ما شاءت الدولتان العظميان. وتجيء رسالة فارغة من المعنى.. ومن بعدها رسالة أكثر فراغاً فيرفضهما الرئيس السادات شكلاً ومضموناً... وترتفع درجة الغضب والسخط فيصدر قراراً خطيراً وهو في غاية الهدوء الظاهري..

وفي ظل أعقاب وفي مضاعفات هذا القرار تتعثر العلاقات بين البلدين...

انتهت زيارة نيكسون لموسكو في يوم الخميس 25 مايو. وهو لقاء تاريخي. اهتز له العالم كله. ولابد أن السوفيت والأمريكان قد تصارحوا بأشياء كثيرة. واتفقوا. وأملي كبير ألا يكون هذا الاتفاق على فرض التسوية علينا في الشرق الأوسط... حتى السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قد انزعجت هي الأخرى من أن تتفق الدولتان العظميان على فرض التسوية بالقوة .. على الرغم من أن إسرائيل هي المعتدية وهي التي تحتل أرضنا، العلاقة التي بين أمريكا وإسرائيل مختلفة تماماً عن العلاقة التي بيننا وبين السوفيت.. فإسرائيل عميلة لأمريكا وتعيش على أمريكا ابتداء من الرغيف حتى الصاروخ.

وكل ما أتوقعه في ذلك الوقت أن أتلقى ما اتفقت مع القادة السوفيت عليه.. فأنا أنتظر أن يفوا بمطالبي السبعة التي حددتها. وقد تكنهت بعض الصحف الغربية في ذلك الوقت أن مطالبي السبعة هي أنواع متطورة من الأسلحة.. وليست هذه التكنهات بعيدة عن الحقيقة.

وإن كنت أعترف بأنني لم أطلب المساواة بإسرائيل. أتمنى طبعاً أن يكون نصيبي من الأسلحة السوفيتية يعادل ما تتلقاه إسرائيل بغير حساب. ولكني كنت معقولاً جداً في مطالبي فأنا أرضى أن أقف وراء إسرائيل بدرجتين، لا بعشرين درجة... كما ذكرت ذلك من قبل.

ثم صدر" البيان الوفاقي" الأول. وفي هذا البيان أن الدولتين العظميين تتعهدان ببذل كل الجهود المستطاعة من أجل تسوية سلمية في الشرق الأوسط .. وألا تنفرد إحداهما بإحراز أية مكاسب على حساب الأخرى. .. وأن تبذلا كل الجهود ضد تصعيد الموقف حتى لا يزداد التوتر الدولي وتكون مواجهة بين الدولتين....

وجاء في هذا البيان" الوفاقي" أن الدولتين تؤيدان قرار مجلس الأمن رقم 242.

وليس في هذا البيان شيء جديد. ولكن الذي يهمني في المقام الأول أن أتلقى من موسكو كل ما اتفقنا عليه.

وأول ما أتلقاه عادة أن يجيء بيان أو معلومات أو أخبار عن قيام السفن السوفيتية من البحر الأسود إلى الإسكندرية. لكي نستعد لاستقبالها في ميناء الإسكندرية ليلاً وحتى لا تتكدس الذخائر على أرصفة الميناء. هذا ما أتوقعه. وحتى ذلك اليوم كنت، وبمنتهى حسن النية، أؤمن بأنهم سوف يفعلون فليست مطالبي مبالغاً فيها. وهذا واضح في كل اجتماعاتي بهم.

مضى شهر مايو كله. وفات الأسبوع الأول من يونيو. وقلت للسفير فينوجرادوف: أنت كنت معي في موسكو . فأين الذي تعهد به القادة السوفيت؟

قال: أنا اذكر ذلك التعهد بوضوح.

قلت: اتصل بموسكو فوراً...

وفي السفارة السوفيتية في القاهرة خط مباشر مع موسكو. وفي استطاعة السفير أن يرفع السماعة ويتحدث مباشرة مع بريجينيف. وأن ينقل إليه كل ما قلته له. وما قلته ليس أكثر من أني أذكرهم بوعودهم. وأن الوقت يجري ضدنا. وأن الشهور الباقية حتى انتخاب الرئيس الأمريكي الجديد يوم 7 نوفمبر كافية لإرسال ما اتفقنا عليه. وإن كنت أرى أن الوقت يضيق.

وأن الوضع يزداد صعوبة. وأن الناس في مصر قد ضاقت بموقف السوفيت. وأنني شخصياً قد ازددت ضيقاً. وبدأت الدماء تغلي في عروقي. وليس هذا تعبيراً مجازياً. ولكنه قريب مجداً من الحقيقة. رغم حرصي الشديد على أن أبدو غير ذلك..

وفي الأسبوع الثاني من يونيو طلب السفير السوفيتي مقابلتي.

قلت لنفسي: فرجت . انحلت. وكنت أظنها لن تنفرج أو لن يكون لها حل قريب.

ولم أفاجأ بأي شيء مما قاله السفير السوفيتي. كل شيء كما توقعت. السفير يحمل رسالة من برجينف هي نسخة من البيان " الوفاقي" الذي صدر بعد نهاية زيارة موسكو. مع إضافة واحدة .. وهي أن بريجنيف بذل جهداً كبيراً في إقناع نيكسون بقرار مجلس الأمن رقم 242.

شيء عجيب . ومن طلب إليه ذلك؟ وهل نحن في حاجة إلى أن يقتنع نيسكون بذلك؟

فقط... أن بريجينف قد بذل " جهداً كبيراً " في إقناع الرئيس الأمريكي. أما بقية الرسالة السوفيتية فهي كلام ضخم فخم تافه من أوله لآخره.. وهو لا يختلف كثيراً عن البيانات الرسمية للدول الشيوعية. فهذه البيانات تمتلىء بعبارات لها رنين وطنين وبها تراكيب غريبة عجيبة . والمعنى: لا شيء ينفع أو يشفع .. ينفع قضيتنا أو يشفع لهم عندنا.

وبعد أن فرغ السفير فينوجرادوف من رسالته.. قلت وأنا أغلى حقاً: شكراً على الرسالة. وفعلاً جاءت موافقة تماماً لما توقعناه قبل ذلك من أنه لا شيء جديد في العلاقات الأمريكية السوفيتية. وأن أمريكا في سنة الانتخابات لن تستطيع شيئاً.. كل هذا توقعته . وحدث كما توقعته. ولكن أين ما اتفقنا عليه؟

قال السفير: هذا ما سوف أفعله مباشرة.

قلت: حتى الآن لم يصلني خبر واحد عن تحرك سفن الشحن السوفيتية .. هل جفت مياه البحرين الأسود والأبيض.؟؟...

ولم ينطق السفير بكلمة.

قلت له: الآن.. اذهب فوراً وأنقل كل كلمة قلتها لك للقادة السوفيت. كل كلمة.

وذهب السفير ومعه ذهب شهر يونيو كله..

وأقبل اليوم الأول من يوليو.. ولا أعرف كيف أصف هذه التغيرات النفسية العنيفة التي طرأت على أعماقي. إن الأيام قد علمتني ألا أتخذ قراراً في حالة الغضب. وأنا في قمة الغضب أخشى أن أتخذ قراراً. فأنا لا أحب أن يكون رأسي ساخناً. ولا أحب وأنا في هذه الحالة أن أقرر شيئاً آسف عليه أو أتجدنى مضطراً إلى الرجوع فيه. وأنا أؤمن بأن الوقت يجب أن يكون في خدمتنا، وليس سيفاً على رقابنا.

ومع الساعات الأولى من شهر يوليو، أستطيع أن أقول بمنتهى الوضوح الآن: إن بذور قرار 8 يوليو قد سقطت من يدي على الأرض الممتدة بيننا وبين السوفيت.. إنها بذور.. ولا أعرف ما اسم هذا النبات الذي أنبتته هذه البذور.. أي نوع من الأشجار الشائكة بيننا وبين السوفيت.. هل هي بذور أو هل هي قطع من الجليد تساقطت بكثرة فائقة؟!..

إن شيئاً سقط من أيدينا على أرض الصداقة المصرية السوفيتية، وبسرعة تحول إلى نبات غريب.. شائك.. أبيض.. هل هو نبات؟ .. هل هو جبال جليد؟.. !

ولكن من المؤكد أنه مع بداية يوليو بدأ الجليد يتساقط كثيفاً عنيفاً بين مصر وروسيا. ما في ذلك شك.

هل كان من الصعب أن استعرض الأحداث كلها؟

ليس صحيحاً المثل الذي يقول: ما فات مات.. فالذي فات لم يمت. وإن كنت حرصت كثيراً على أن أميت في نفسي الكثير مما قاله وفعله الروس. ولكنهم هم الحريصون على أحياء كل الذي ضايقني وأهان مصر وأحرجها، وأهان قواتها المسلحة.

وإلا فما معنى أن أبني استراتيجيتي العسكرية السياسية على وعود وعهود، ثم إن شيئاً من هذه العهود والوعود لا يتحقق.؟.. ما معنى أن أبني القصور السياسية والقلاع العسكرية على رمال متحركة؟ ما معنى أن استضيء بالسراب؟ ما معنى أن أصرخ في مواجهتهم صادقاً، وأن أواجه الشعب بوجه آخر.. يعلم الله ما الذي كان يخفيه هذا الوجه من المرارة والعذاب؟!

لو كان الذي وعدني زعيماً واحداً ثم أخلف وعده لقلت إنه واحد من ثلاثة أو من أربعة .. ولكنهم جميعاً- كل القادة السوفيت حتى بريجنيف رجلهم الأول- اتفقوا جميعاً على إحراجي وإرهاقي!..

ما الذي أستطيع أن أفعله؟

السؤال سهل. ولكن الإجابة صعبة. وفي رأسي أشياء كثيرة. وعلى مسامعي تتردد أصـــوات وأصداء واجتهادات. وأمام عيني: الشعب وغضبه والقوات المسلحة وصبرها الطويل علـــى مضض. .. وما أسمعه كل يوم من استخفاف الخبراء السوفيت برجالنا، واستهانتهم بقدرتنا.. لقد سمعت ذلك بأذني في أحد اجتماعات الكرملين. فما الذي لا يقوله رجـــالهم لرجالنـــا.. إن لديهم تعليمات صريحة بذلك. فليس بينهم واحد يقدر على أن يفعل شيئاً مهماً كان صغيراً دون تفويض بذلك. فليس بينهم واحد يقدر على أن يفعل شيئاً مهما كان صغيراً دون تفويض بذلك. إذن هو موقف عام. وسياسة يتبعونها مع مصر من أعلى مستوى حتى أصغر جندي...

كل الذي دار في رأسي أن أصدم الروس في رءوسهم.

كيف؟

إن الروس في حاجة إلى صدمة كهربائية. إلى شيء يصدمهم ويكهربهم لعلهم يفيقون. ولكن أين؟...

ومتى؟ .. وكيف؟...

ووصلت إلى قرار أقنعني . وأريد أن أناقشه بالفعل مع أحد . أو لعلي بهذه المناقشة أعطـــي لنفسي فرصة للتريث.

أو أقوم بتبريد رأسي الساخن، تفادياً لخطأ قد أقع فيه. واتجهت في يوم 7 يوليو إلى بيـــت د. محمود فوزي على ترعة المنصورية. وكان وقتها نائباً لرئيس الجمهورية. وهو رجل عاقـــل حصيف. علمته الحياة في الشرق الأقصى أن يكون هادئ النفس صافي العقل. ذهبـــت إليـــه. وعرضت عليه ما في نفسي بكل صدق. وكان أول إنسان أطلعه على قراري. وأقرني عليه. وفي الطريق من بيت د. فوزي إلى القناطر الخيرية تزاحمت الصور على رأسي. فأنا أعرف بالضبط كل ما حدث. وأعرف تماماً ما سوف يحدث. ولو عرف الشعب حقيقة ما حدث لـــي ولمصر، لأقرني الناس جميعاً على ذلك. وأنا أعرف كل نبضات الشعب. وأعرف ما يـــدور في رءوس وقلوب قواتنا المسلحة.. هذه الصور قد أوصلتني إلى اقتناع واحد: أن الذي سوف أعمله هو الصواب. وليس أمامي إلا هذا القرار... في نفس هذا اليوم جاءني مـــن الســـفير السوفيتي أن لديه رسالة عاجلة. وأنه يريد أن ينقلها إلى ..

ولم أتفاءل. فما الذي يمكن أن يقوله السوفيت بعد بيان " الوفاق" الذي تحدث فيـــه الســـوفيت والأمريكان عن شيء جديد اسمه " الاســـترخاء العســـكري".. أو التخـــاذل العســـكري.. أو

اللامبالاة بكل ما قلت وما طلبت؟.. من الذي يسترخى عسكرياً في المنطقة؟ هـل تسـترخى قواتنا وأرضنا محتلة؟ هل تسترخى أفكارنا وقد أقمنا استراتيجيتنا على الوعود السوفيتية، على أرفع المستويات؟.

ما الذي يمكن أن تضيفه الرسالة العاجلة بعد أن وضح كـل شـيء فـي موقـف السـوفيت والأمريكان؟.

وحددت للسفير السوفيتي لقاء في قصر الطاهرة في الساعة الثامنة من مساء السبت 8 يوليو.

واتصل بي الرئيس حافظ الأسد من موسكو يقول إنه في زيارة سرية. وإنه لم يشأ أن يعلـن عنها. ولكنه سوف يجيء إلى زيارتي يوم الأحد 9 يوليو....

ولكن القرار الذي اتخذته قد وضحت معالمه تماماً ولم يبق إلا أن أعلن ذلك.....

جاء السفير السوفيتي فينوجرادوف ومعه المترجم. وكان معي حافظ إسماعيل وقلت لـه: يـا حافظ... اكتب كل كلمة.

فقد أردت أن أسجل في هذا اليوم كل شيء. فذلك يوم تاريخي.

وجاء السفير السوفيتي. وتقدم بالبيان وأخذ المترجم يقرأ النص العربي. وأسندت رأسي إلـى يدي. ثم وضعت يدي على خدي. وانتظرت... وتوالت العبارات ومعها الصـور. والرسـالة تتحدث صفحة وراء صفحة عن كل ما جاء في الرسالة السابقة من جهود روسيا فـي إقنـاع الأمريكان بأهمية القرار 242.. لا جديد. والكلام يدخل ويخرج من أذني دون أن يترك أثراً، إلا المزيد من الغيظ.. أما عن المعركة والحرب فالرسالة تقول: إن لهم تجارب طويلة مريرة في القتال. وإننا لا نعرف معنى الحرب ولا معنى أن نشن حرباً جديدة.. إن الموقف أخطـر وأفظع مما نتصوره في مصر.

وتذكرت نغمة كانت سارية في الصحف الشيوعية في ذلك الوقت.. أن السوفيت لا يريدون الحرب خوفاً على الأنظمة التقدمية في المنطقة. وخوفاً من أن تؤدي هذه الحرب إلى " غليان قومي" أي قيام النزعات القومية وتماسك الشعوب العربية، وارتفاع المد الوطني والقومي في مصر وفي غيرها. يعني أنهم لا يريدون الحرب، لأن الحرب سوف تمزق النشاط الشـيوعي في المنطقة.

هذه النغمة أعرفها. ولكنها لا تهزني أيضاً, وإنما الذي هزني هو ما حدث بعد نهايـــة زيـــارة نيكسون والرسائل التافهة التي تتوالى من الكرملين.

وبمنتهى الهدوء الظاهري، والانفجار البركاني في أعماقي قلت للسفير السوفيتي: هل انتهـــت الرسالة؟..

قال: نعم

قلت: وكل ما فيها هو هذه السطور الخمسة الأخيرة عن الحرب وعجز مصر عن دخولها .. وقصورها عن فهم أبعادها...؟

ولم يرد الرجل....

طلبت إلى حافظ إسماعيل أن يكتب كل كلمة أقولها وتلفت إلى المترجم السوفيتي فـــي نفـــس الوقت قائلا: أحب أن أقول للأخوة السوفيت إن هذه الرسالة مرفوضة شكلاً ومضـــموناً، ولا أقبل، ولن أقبل، مثل هذا الأسلوب في مخاطبتي ومخاطبة الشعب المصري من ورائي.

ثم أمليت تاريخ العلاقات المصرية السوفيتية من أوله لآخره. قد أمليته في ذلك الوقت. فلم يبق في نفسي شيئاً لم أبعث به إليهم. أخرجته من أعماقي . رفعته من فـــوق صـــدري. صـــفيت حسابي. أقفلت دفاتري. ولم أترك حتى الحوار الذي دار بيني وبين بريجنيف عـــن التحليـــل السياسي والعسكري للموقف. وعن ضرورة الاستعداد العسكري لتحريك الموقف السياســـي. تماماً كما حدث في فيتنام مما أدى إلى زيارة نيسكون. واستغرقت ســـاعة فـــي إمـــلاء هـــذه الرسالة. وكان وجه السفير في لون الشمع. ثم تلفت إلى السفير وحافظ إسماعيل قائلاً: انتهت الرسالة. وهذه هي القرارات

اكتب: اليوم الأحد 8 يوليو وغدا الاثنين 9 يوليو.....

ويوم الاثنين الذي يليه يخرج الخبراء السوفيت بالكامل من مصر. جميعاً. وإذا كانت لكم هنا أسلحة مثل الطائرات الأربع الميج 25.. فخذوها معكم. وإذا كانت هنا محطات إنذار مبكـــر. فخذوها أيضاً. فهي قديمة ولا قيمة لها. أو نشتريها منكم. وكل مالكم من أسلحة خـــذوها. أو نشتريها منكم.

ومحطات الإنذار لا هي محطات ولا هي إنذار مبكر أو متأخر.. إنها قديمة بالية متداعيـــة... وقد اشترينا محطات أفضل منها من فرنسا. إنهم في فرنسا يبيعونها في الدكاكين، وليست سراً عسكرياً !

ولم أتبين أن وجه السفير قد أصبح في لون الثلج، وأن حافظ إسماعيل كانت حالتـــه النفســية أسوأ. وإنما أمضيت أقول إنه لابد بعد ذلك أن نلتقي لنبحـــث معاهـــدة الســـلام التـــي بيننـــا وبينكم.ولابد أن نعرف مداها وجدواها. وما الذي أفدنا واستفدنا منها؟.

وطلبت من حافظ إسماعيل أن يرافق السفير السوفيتي حتى الباب.

انتهى كل شيء. نزلت إلى حديقة قصر الطاهرة. وكنت قد جمعت عزيـــز صـــدقي رئـــيس الوزراء، وممدوح سالم وزير الداخلية، وأحمد إسماعيل– الله يرحمـــه – مـــدير المخـــابرات يومئذ، ومراد غالب وزير الخارجية.

أما عزيز صدقي فقد كان واضحاً. أعلن أنه قد آن الأوان لكي تكون علاقتنا بالسوفيت" أبيض وأسود" . وقد كان ذلك تفكيراً سليماً لرئيس وزراء مسئول وطلبت من ممدوح سالم أن يستعد لمواجهة الموقف كله..

أما مراد غالب فقد كان مهتزاً لم يعجبني. فلأن ثقافته شيوعية. فقد أطاح به الموقف. وإذا بي أجد وزير خارجيتنا تائهاً ضائعاً لا يعرف معنى هذا القرار. ولم يكن هناك معنى لأن يبقى في موقعه..

لئن كان خروج الخبراء السوفيت، صوتاً صارخاً، فإن صداه ما يزال يتردد حتى اليوم...

وإن كان طريقاً فنحن ما نزال نسير فيه..

وإن كان هوة بيننا، فقد تردى فيها كل شيء..

وإن كان ناراً فلا يزال لها شرار....

وإن كان جليداً فهو الذي يملأ الطرق والجسور التي بين موسكو والقاهرة...

هل كان هذا القرار ضروريا؟ نعم...كان ضروريا لنا، وكان ضروريا لهم . فقد كانت هنـــاك قضايا يجب أن يعاد النظر فيها.. فليس من القضايا المسلم به أيضاً أنه لا إرادة لنا.. ولا من المسلم به أن نظل في حالة لا هي حرب ولا هي سلم.

ولا أحد قال من موقعي هذا إن الروس سوف يحاربون لنا، ويموتون بالنيابة عنا، ويخرجون اليهود من أرضنا.. وكان من الضروري أن يعرفوا، وأن يتأكد لديهم من الـذي يسـتطيع أن يحرك الموقف؟.. ومن الذي يستطيع أن يضغط على اليهود.؟ ومن الذي يستطيع أن يـدفعهم إلى الوراء؟.. وهل يستطيع المقاتل المصري أن يدفع عدوه وأن يدافع عن أرضه؟.. وهل هو حقا قد استوعب السلاح الذي في يديه؟...

وهل صحيح أن قادتنا قادرون على التفكير والتدبير.. وأنهم ليسوا كما قال الخبراء والوزراء السوفيت لا يصلحون للقتال؟.. وهل صحيح أن الجندي اليهودي قد ولد لينتصر، وأن الجندي المصري ولد لينهزم. وانهزم. وسوف ينهزم؟.. إنني لم أقبل ذلك في أي وقـت ولـم يقبلـه جنودنا في جميع مواقعهم وعلى كل مستوياتهم. ..

إن وجود قواتنا على التراب المصري وتحت وهج الشمس وفي زمهريـر الصـحراء لـيلاً وشتاء، وإصرارهم على القتال لأنه مكتوب علينا، ومن أجل مصر ومن أجل كرامة العـرب كل ذلك كان سندي ودليلي عندما اتخذت القرار بإخراج الخبراء السوفيت.....

وقراراً آخر تاريخياً هو : العبور...

أما كيف كان صدى هذا القرار بعد إعلانه رسمياً في العالم الشيوعي والصحف العملية، فكان عنيفاً. لأن أحد لم يتوقع شيئاً من ذلك. فالسوفيت– كما أكدوا للأمريكان – قد وضعوا أقدامهم في مصر وعلينا أن نضع رءوسنا حيث وضعوا أقدامهم. . وكان عملاؤهم في مصر يقولون ذلك.. ويكفيني ما رأيته من الهلع والضياع عندما سمع وزير خارجيتنا هذا القرار. لقد كـان صورة مصغرة من ألف صورة في ألف مكان.

ولكن صحيفة برافدا نشرت مقالاً عن " الخروج من مصر" بتاريخ 20 يوليو تقـول فيـه" إن الخبراء السوفيت في جمهورية مصر العربية قد أنهوا مهمتهم وبعد مشاورات بين الطـرفين وتبادل وجهات النظر، رأى الطرفان عودة العسكريين السوفيت الذين كلفوا بمهمات محـدودة لفترة محدودة. وكما قال الرئيس السادات في خطابه إلى اللجنة المركزية إن هذا لن يغير من المبادئ الأساسية للصداقة".

وما جاء في صحيفة برافدا نقلاً عن خطابي إلى اللجنة المركزية كان صحيحاً. فإنني حريص على الصداقة السوفيتية.. ولكن يبدو أنه لم يكن قد أصبح واضحاً تمامـاً، إنهـم هـم غيـر الحريصين. ولابد أن لهم فلسفة في ذلك.

وأرى أنه قد آن الأوان لكي يعرف كل منا، مصر وروسيا، ما هي حدود الصداقة؟ وما هي حدود الإرادة الوطنية. وحدود المصلحة.. ؟ وعلينا في جميع الأحوال أن نمشي وراء الـــذي نراه أفضل من أجل مصر.....

أنور السادات